سلسلة الثقافة الإسلامية ٩٩

نقد النظرية الماركسية في تفسير الدين

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٩٩ -

هذا البحث مستل من كتاب دور الدين
في حياة الإنسان للمؤلف



اسم الكتاب: .... نقد النظرية الماركسية في تفسير الدين

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الاولى: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

الكمية.. ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:......... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنيفاً فِطْرَةَ اللَّـهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

الروم/ ٣٠

تمهيد

منذ زمن ليس بقصير ألفنا في حياتنا الاجتماعية لوناً من الجدال والحوار حول الدين وقيمته كظاهرة غيبية وظاهرة اجتماعية.

وللناس رأيان في هذه المسألة. يذهب اكثرية ساحقة من الناس إلى الايمان بواقعية الدين الغيبية وقيمته الاجتماعية في حياة الإنسان، بينما تنكر اقلية من الناس هذه الواقعية الغيبية والقيمة الاجتماعية للدين جميعاً.

وينسحب هذا الاختلاف والجدال على كثير من اوساطنا الاجتماعية، ويتخذ في حياتنا صوراً مختلفة. فهو حيناً نقاش علمي هادئ، يسلك فيه الطرفان المتخاصمان سبل العلم والعقل والفلسفة، وحيناً آخر صراع على مستوى وسائل الاعلام والتوجيه، يحاول فيه كل من الطرفين كسب المعركة لصالح الرأي الذي يدافع عنه وقد اصبح هذا التضارب والصراع شيئاً مألوفاً وشائعاً في حياتنا اليومية.

فلربما يتردد على صف دراسي واحد مدرسان كل منهما يقف موقفاً معاكساً للآخر من مسألة الدين.

ولربما تنشق الاسرة الواحدة إلى جبهتين مختلفتين، يشتد بينهما الخلاف والصراع، على اشد ما يكون.

والامر كذلك في الصحف والمجلات والكتب والمعاهد العلمية والثقافية والكتل والجماعات والفئات المختلفة في بلادنا.

موجة الشك

وإذا أردنا ان نؤرخ لهذا الصراع نستطيع ان نقول ان هذا الصراع حدث في بلادنا بصورة واضحة منذ ان اتصلت الاسباب الحضارية بيننا وبين الغرب.

فمنذ هذا التاريخ تقريباً تسربت موجة من الشك بالقيم والدين إلى مجتمعنا، وتعقبه صراع وخلاف عميق حول الدين.

وكان مصدر هذا الشك هو (الغرب) الذي كان يصدر الينا إلى جانب بضائع العلم والمدنية الحديثة بضاعة (الشك) وشفعت له بضاعة العلم والمدنية الحديثة في رواج هذا الشك والتنكر للدين في الاوساط المتصلة بالغرب من

مجتمعنا.

واتصلت موجة الشك هذه بموجة الالحاد التي جاءتنا من (الشرق) بعد ذلك على شكل (الماركسية) وقد مهد لها الغرب الطريق من حيث لا يعلم.

ومهما يكن من امر فقد انضم إلى هذا التيار نفر من هنا وهناك وبدأوا يكتبون ويقولون، واحيانا يعملون ويخططون لمكافحة التدين والدين وللغض من قيمة الدين.

السبب الحقيقي للشك والالحاد

ورغم ان هذه الموجة قد تأطرت بإطار من العلم واتخذت قناعاً من الفلسفة. . فان بعض التأمل في تاريخ هذا الشك ونشوء هذا الالحاد في العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي يكشف لنا عن ان الاسباب الحقيقية لها ليست علمية أو فلسفية، كما يبدو للإنسان لاول وهلة، وانما نشأت عن اسباب اجتماعية ونفسية قبل ذلك، ثم كان العلم والفلسفة عوناً للإنسان في هذا الاتجاه.

فقد كان تحريف الدين وسوء استغلال الدين من قبل

الفئات المنتفعة باسم الدين سبباً في رد فعل جمعي عنيف ضد الدين، كما ان انسلاخ الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي في نظر المعجبين بهذين المعسكرين من ابناء مجتمعنا سببا في الدعوة إلى الانسلاخ والتحلل عن الدين.

واما الاطر الفلسفية والعلمية التي تؤطر هذا الالحاد والشك، وتجعل منه بضاعة علمية في اسواق العلم والفلسفة فلم يكن له شأن كبير في ذلك، ولم يكن لانصار الدين والمدافعين عنه عجز من ان يقارعوا هذا السلاح العلمي بسلاح عقلي علماني اقوى منه.

التمييز بين الدين والانحراف الديني

ولذلك فلكي يتاح لنا ان نبحث بحثاً حراً عن الدين، ونفتح ابواب المناقشة في هذه المسألة الحيوية، التي تثير اهتمام المتدينين والمناوئين للدين على نحو سواء. . ينبغي ان نسعى باخلاص في التمييز بين ما هو دين وبين ما هو استغلال وانتفاع باسم الدين، ونعزل هذا عن ذاك، وننتزع الدين عن الاطر المشوهة والغامضة التي وضع الدين فيها على مرور

الايام.

وليس من العسير ان نجد الاطار الصحيح الذي يمكن الاتفاق عليه للدين، ليأخذ البحث مجراه الطبيعي، الذي يمكن ان يوصلنا إلى غاية نافعة.

وليس يعيب الدين بعد، ان يساء استغلاله كما لا يعيبه ان يساء فهمه.

ومثل الدين في ذلك مثل كثير من القيم والمفاهيم الإنسانية التي أساء الإنسان استغلالها بتوجيهها لاغراض شخصية خاصة.

فما اكثر ما اساء الإنسان استعمال العدالة وفهمها، ومع ذلك فلا شيء أحب الينا واقرب إلى نفوسنا من العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والدين ليس بدعا من الامر، فقد كان تأثير الدين العميق في حياة الإنسان وسلوكه وتفكيره على امتداد حياة الإنسان وتاريخه سبباً في ان يطمع كثيرون من الناس الوصوليين في استغلال هذه الظاهرة الكبيرة المؤثرة في حياة الإنسان في

تحقيق مطامعهم واغراضهم الشخصية.

وكان من الطبيعي ان يحاول هؤلاء تشويه معالم الدين ليتأتى لهم هذا الاستغلال.

الاطار الصحيح للدين

ومهما يكن من امر فان ازالة هذه العقبة عن طريق ايجاد وعي ديني صحيح في مجتمعنا وحسم الخلاف الناشب في هذه المسألة – إلى حدّ ما – لا يتطلب اكثر من محاولة جادة مخلصة في ابعاد كل العوامل الغريبة عن جوهر الدين وتعاليمه ودراسة الدين بصورة مستقلة عن ظروف الانحراف والاستغلال الديني، ومحاولة فهم الدين وارتباطه بالله تعالى، ودوره ومسؤوليته في حياة الإنسان بصورة صحيحة، وفي اطاره الواقعي الذي انزله الله في كتابه.

ولا يتطلب الامر عندنا كثيراً من العناء، فالقرآن الكريم هو اكبر مصدر ديني مصون عن الانحراف، وهو يرسم لنا الاطار الواقعي الصحيح للدين، ويعطينا فكرة لا لبس فيها عن الدين وعلاقة الإنسان بالله.

وتغنينا مراجعة القرآن الكريم وتحكيمه عن كثير من المناقشة في واقعية التهم التي تنسب إلى الدين.

وسوف تكون هذه المحاولة في تجريد الدين عن الظروف التاريخية الغريبة عليه، ووعي الدين في اطاره الصحيح اهم مسؤوليات البحث الحاضر، الذي ارجو أن يكون خطوة موفقة في تذليل بعض عقبات الطريق.

الشعور بالغرور العلمي والاكتفاء عن الدين

وهناك اسباب اخرى لا تخلو عن اهمية، في ابتعاد الإنسان المعاصر عن الدين. . من اهمها الغرور العلمي الذي تملّك الإنسان المعاصر بما احرز من انتصار في حقل المادة.

فقد خلق التقدم العلمي الذي احرزه الإنسان شعوراً بالغرور والاكتفاء الذاتي لدى الإنسان، وألقى في نفسه أن بامكانه الاستغناء عن الدين بما أوتي من علم وعقل.

فقد ملك الإنسان زمام الكهرباء والبخار، وطاوعته القوة الجبارة الكامنة في الذرة، وانقادت له الطبيعة، وملك من زمامها ما لم يملكه من قبله، واخضعت له التجربة ما كان

يستعصي عليه من قبل. وكان كل هذا سبباً في ان يركب الإنسان غرور كبير بما أوتي من سلطان وعلم، أدى به إلى الاعراض عن الدين، وعن الخضوع لسلطان الدين.

غشاوة المادة

وهناك سبب آخر قريب الصلة مما تقدم في ابتعاد الإنسان المعاصر عن الدين، وذلك ان التقدم الكبير الذي احرزه الإنسان في مجال العلوم التجريبية المادية ترك غشاوة على بصيرته حجبته عن رؤية كل شيء يخرج عن حدود النطاق المادي في الكون.

فقد توغّل الإنسان المعاصر في اكتشاف اسرار المادة، وعرف من اسرار المادة ما كان يجهله من قبل، واكتشف قوانين المادة ورموزها إلى حد بعيد، وملأ دنياه سحر المادة وبريقها إلى حد الافتتان. . فعاد الإنسان لا يرى في غير المادة شيئاً يستحق التفكير والاهتمام، ويستحق عنوان العلم.

ولما كان الدين يعتمد على قواعد غيبية خارجة عن نطاق المادة وينطلق من منطلقات لا مادية اعتبره الإنسان ظاهره

غير علمية واصبح العلم في حسبان الإنسان يتحدد بحدود المادة وما يخرج عن هذه الدائرة فليس بعلم!!!

ومن عجب ان يتنكر الإنسان بهذه الصورة لكل شيء يخرج عن النطاق الفيزيائي في الكون، فان العلم الحديث بكل سلطانه وسعته لم يتجاوز نطاق الدائرة الفيزيائية، ولا يملك الاداة التي تمكنه من الحكم سلباً أو ايجاباً على ما يقع خارج هذه الدائرة. فإن الاداة العلمية الجبارة التي تمكن منها الإنسان المعاصر وهي التجربة لم تمكن الإنسان من اكثر من الحكم على هذه الدائرة المادية بالسلب أو الايجاب، واما ما يقع خارج هذه الدائرة من الغيب (والكون الميتافيزيقي) فليس من صلاحية التجربة.

ومن عجب ان يزداد الإنسان المعاصر كلما تقدم به العلم خيلاء وكبرياء، والامر ينبغي ان يكون على العكس تماماً.

فكلما يفتح العلم للإنسان من عجائب هذا الكون المادي واسرار المادة مما كان الإنسان يجهله من قبل، ينبغي ان يشعر الإنسان بضآلة ما يعرفه من علم ازاء الآفاق التي يجهلها من

هذا الكون فلا يقف ازاء ما يجهله من آفاق الكون الرحبة موقف النفي والرفض بهذه الصورة الجازمة الساذجة.

فقد كانت لهذه الاحكام الصارمة مبرراتها حينما كان الإنسان لا يعرف من هذا الكون غير ما تقع عليه عينه، ويحس به احساساً مباشراً، أما اليوم وقد اتسع نطاق معرفة الإنسان وامتدت امامه آفاق المعرفة والعلم فسيحة رحبة. . فينبغي ان يكون اكثر عقلانية ودقة من ذي قبل، ولا يتسرع إلى اصدار احكام قاطعة بنفي وجود أي شيء وراء هذا الكون المادي والدائرة الفيزيائية التي تحددها المادة والطاقة.

الايمان بالدين كظاهرة غيبية

ليس من شك ان ظاهرة التدين والايمان بالغيب كان من اقدم ما عرفه الإنسان في حياته، ومن اكثر الظواهر ثباتاً وشيوعاً في حياة الإنسان.

ورغم اختلاف مظاهر التدين في حياة الإنسان فقد كان الإنسان يؤمن في هذه الحالات جميعاً بوجود خالق حكيم مبدع ما وراء الطبيعة وما وراء المظاهر المادية.

ورغم ان الاحساس البشري لا تباشر غير المـادة والطاقـة، فإن الإنسان يـؤمن بحقيقـة ثالثـة، لـيس هـو بمـادة ولا طاقـة، وإنما هو مبـدأ للمـادة والطاقـة معاً، وذلـك هـو الغيـب الـذي يؤمن به الإنسان، دون ان يقع له عليه حس، ودون ان يباشـره بشيء من حواسه.

والسـؤال الـذي نـود ان نطرحـه فـي هـذا الفصـل هـو ان الايمان بالدين كظاهرة غيبية هل هـو شـيء اصـيل فـي حيـاة الإنسان نابع من اعماق شخصية الإنسان وفطرتـه ام هـو شـيء طارئ على حيـاة الإنسـان نتيجـة بعـض الظـروف والاوضـاع الاجتماعية؟

وهل يؤمن الإنسان حقا بالدين، ام هو وهم يبدو للإنسـان على شكل يقين؟

وهل الايمان بالغيب ام ثابت في كينونـة الإنسـان وفطرتـه ثبات الغرائز والنوازع الاصيلة، ام هو مرحلة في حياة الإنسان، كما يقول (أوجست كنـت)، حيـث يـرى ان الإنسـانية مـرّت بثلاث مراحل في حياتها، دور الفلسفة الدينيـة ودور الفلسـفة

التجريدية ودور الفلسفة الواقعية؟

ومرد هذه التساؤلات جميعاً إلى التساؤل عن اصالة التدين في شخصية الإنسان.

ولا شك ان اكتشاف هذه النقطة الجوهرية ينفعنا كثيراً في فهم حقيقة الدين، واثبات واقعية التدين والايمان بالغيب واثبات واقعية الدين في حد ذاته ايضا.

وبذلك فان اصالة النزوع الديني في شخصية الإنسان يكشف عن حقيقتين جوهريتين في هذا المجال:

الحقيقة الاولى ان التدين حقيقة ثابتة في شخصية الإنسان، وان النزوع الديني نزوع صادق، وليس وهماً او سراباً في النفس.

وصدق هذا النزوع واصالته في الشخصية يكشف بلا شك عن واقعية التدين الذاتية في نفس الإنسان.

كما يكشف عن ان التنكر للدين شيء طارئ على الشخصية، وعرض من الاعراض النفسية والروحية التي تصيب الإنسان، وشذوذ في فهم الإنسان وليس حالة عامة في

الإنسان.

والحقيقة الثانية ان هذا النزوع بهذا الشكل من القوة والاصالة لا يمكن ان يكون خاطئاً. فلا يمكن ان تنزع الفطرة عبثاً وراء غيب لا حقيقة له.

كما لا يمكن ان يكون وجود الماء وهماً بالنسبة إلى الإنسان الذي خلق بحاجة إلى الماء فاذا كان الظمأ والحاجة إلى الماء حقيقة واقعية في حياة الإنسان، كان وجود الماء على وجه الارض حقيقة واقعية كذلك. كما لا يمكن ان يكون النزوع إلى الجنس الآخر حقيقة في شخصية الإنسان ثم يكون الجنس الآخر وهماً لا حقيقة له، فلا يمكن ان ينزع الإنسان نزوعاً واقعياً حقيقياً إلى شيء موهوم.

فاننا لو اثبتنا اصالة هذا النزوع في الشخصية. . فلا يمكن ان ينفك عن واقعية هذا الغيب الذي ينزع اليه الإنسان.

والواقعية هنا، بخلاف الصورة الاولى، واقعية موضوعية وان كان الطريق إلى اثبات هذه الواقعية الموضوعية طريقاً ذاتياً وجدانياً.

ولـذلك فـان النظريـات الدينيـة تقـع فـي اتجـاه معـاكس للاتجاهات المادية في تفسير الدين دائماً.

فان النظريـات الدينيـة تفسـر هـذه النزعـة دائمـاً بـالفطرة، وتؤكـد صـلتها الوثيقـة بالكينونـة الإنسـانية واصـالتها فـي الشخصية، بينما تحاول النظريات المادية توجيـه هـذا النـزوع بعوامل خارجة عن شخصية الإنسان وطارئة عليه.

ومن اشهر هذه النظريات العلمية النظرية الماركسـية التـي تنسب حالة التـدين فـي شخصـية الإنسـان إلـى مصـادر بيئيـة وطبقية خارج كينونة الإنسان وفطرته ولـذلك فهـي تعتقـد ان حالة التدين ليست نابعة من كينونة الإنسان وإنما هي محمّلـة على عقل الإنسان وفهمه.

وفيما يلي نستعرض النظرية الماركسية عن الدين ونناقشها لنجد وجه الصواب والخطأ في ذلك.

النظرية الماركسية

في تفسير الدين

من رأي الماركسية أن الاقلية المستثمرة (البورجوازية) في المجتمع في صراعها الدائم للفئات الكادحة بحاجة دائماً إلى حماية من الخارج لتحمي مصالحها ووجودها من ان تتعرض لخطر من قبل الفئات الكادحة الناقمة عليها.

فان الطبقة الكادحة في المجتمع تسعى دائما للتخلص من الاعباء الثقيلة والفروض القاسية التي تفرضها عليها الفئات المستغلة، ومن استغلال جهودها واتعابها من قبل اقلية تعمل باستمرار في ابقاء الفوارق الطبقية في المجتمع، وانشطار المجتمع إلى شطرين اقلية مستفيدة واكثرية مستثمرة.

ولذلك فمن الطبيعي ان تبحث هذه الفئات المستفيدة عن اداة تحميها عن نقمة الكادحين وسخطهم، حين تثور هذه الطبقة وتعلن عن سخطها وغضبها.

وقد ابتدعت هذه الطبقة مؤسسات ومشاريع اجتماعية

لحماية وجودها ومصالحها من الاخطار التي تسببها لها هذه الطبقة.

و(الدين) و(الدولة) من تلك المؤسسات الفوقية التي تتعهد حماية الاقلية في اي مجتمع من هذا القبيل.

ودور الدين في مثل هذه المجتمعات هو ضمان استمرار استثمار الطبقات الكادحة واجتثاث جذور الوعي الثوري في نفوس الكادحين.

فهو يرسّخ في نفوس هؤلاء جميعا ان الاختلاف الطبقي ووجود الفوارق الطبقية امر من قضاء الله وقدره. وليس من جدوى في مشاكسة امر الله ورفض قضائه.

فقد قدّر الله لاولئك المترفين ان ينعموا برغد الحياة وخيرها، وكتب لهؤلاء الكادحين ان يرزحوا تحت ثقل العمل، وليس ينفع في شيء ان يعاكس الإنسان قضاءً لله حتماً.

وبذلك فليس افضل من ان يلجأ هؤلاء الكادحون إلى (الصبر) و(القناعة) ويترقبوا سعة رحمة الله وجنته في الحياة

الاخرة.

ومن هذا المنطلق تذهب الماركسية إلى ان الدين اداة ابتدعتها الطبقة البرجوازية والطبقة المستفيدة في المجتمع لحماية نفسها وضمان سلامتها.

ويقوم الدين في حياة هؤلاء البائسين مقام المخدر الذي يخدر الإنسان عن واقعه القاسي، والظلم الذي يلقاه من الطبقة المستثمرة في المجتمع.

ولربما يكون اوضح كلمة للماركسيين في هذا المجال الكلمة التي قالها كارل ماركس نفسه: (الدين أفيون الشعوب).

يقول جورج بولتزر، وهو من اقطاب الفكر الماركسي: (الديانة لما كانت تتولد من الجهل فانها تحل محل التفسيرات العلمية تفسيرات خيالية، فتعمل بذلك على ستر الواقع، واسدال الستار على التفسير الموضوعي للظواهر، ولهذا كان الرجل المتدين مناوئاً لمبادئ العلم التي هي من عمل الشيطان (كذا) لانه حريص على اوهامه.

وتستخدم الطبقات المستغلة هذه الخاصية لاهتمامها باخفاء استغلالها عن اعين الطبقات الكادحة، فهي بحاجة إلى سلبية هذه الطبقات وجمودها، كي يستمر اضطهادها، كما انها بحاجة لخضوعها وايمانها بالقضاء المحتوم.

هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى يجب توجيه امل الجماهير بالسعادة نحو العالم الاخر. وهكذا يعوض الامل والعزاء بدخول الجنة، على انهما تعويض عما بذلته الطبقات الشعبية من تضحية على الارض فيتحول الاعتقاد بخلود النفس الذي كان ينظر اليه في القدم على انه مصيبة مرهقة إلى امل بالخلاص في الاخرة.

فاستخدمت الديانة اذن منذ اقدم العصور كقوة فكرية للمحافظة على النظام، وكأفيون للشعوب، حسب ما يقول ماركس)[١].

---

(١) أصول الفلسفة الماركسية: جورج بوليتزر ١ : ٢٠٨، تعريب شعبان بركات ط/ صيدا.

نقد النظرية

ولكي نعرف قيمة هذه النظرية وتتأتى لنا مناقشتها لابد من إلقاء نظرة إلى تعاليم الدين من جهة وتاريخه من جهة أخرى.

فان واقع التدين يتجسد قبل كل شيء في تعاليم الدين واحكامه ونظرياته، ثم في تاريخه الذي يعتبر تطبيقاً عمليا لتلك التعاليم والاحكام إلى حد ما.

فاذا صح ان الدين كان اداة لحماية مصالح البرجوازية ووجودها فلابد ان ينعكس ذلك على تعاليم الدين وتاريخه قبل أي شيء آخر.

ولما كنا نعتقد ان رسالات الله واديانه واحدة في جوهرها وان كانت تختلف في تفاصيلها وجزئياتها فسوف نحاول ان نستقي هذه التعاليم من الإسلام ونعمم مدلوله على الدين في اطاره العام.

١ـ تعاليم الدين

تحاول الماركسية كما سبق وان ذكرنا ان تؤكد ان الدين

تبرير للواقع الاجتماعي الفاسد، وانعكاس لشقاء الإنسان.

يقول روجيه غارودي المفكر الماركسي المعاصر:

(فاما الدين بوصفه انعكاسا لشقاء الإنسان وضعفه فهو يبدو كعقيدة تفسير للنظام القائم، وتبرير له معا، فهو اذ ذاك وبصورة دائمة تقريبا يستخدم كسلاح للسلطان يسمح بتعليم الجماهير ان النظام القائم نظام ارادة الله، وان الخير اذن هو ان يستسلم المرء إلى هذا النظام، وينقاد له في طواعية وانصياع)[1].

ولكي نفهم حقيقة موقف الدين من الانحراف الاجتماعي نرسم ابعاد هذا الموقف في صورة مصغرة لنعرف مدى صحة ما تدعيه الماركسية، ويقوله غارودي من تبرير

---

(١) ماركسية القرن العشرين ١٤٦، تاليف روجيه غارودي، ترجمة نزيه الحكيم، منشورات دار الآداب.

كتب روجيه غارودي هذا الكتاب عندما كان ماركسياً ملحداً، ثم آمن بالله تعالى واسلم، وحسن إسلامه ودافع عن الإسلام وقضايا المسلمين. وقد كتبت هذه الرسالة عندما كان غارودي ماركسياً.

الدين للواقع الاجتماعي الفاسد.

للدين موقفان من الانحراف والفساد الاجتماعي: الأول موقف تفسيري وتحليلي والثاني موقف تغييري.

يتمثل الاول منهما في تحليل الاسباب والعوامل التي تؤدي إلى استغلال الإنسان وانحرافه. وهذا شيء غير التبرير. فان التبرير هو اختلاق المبررات الشرعية للوضع القائم، واقرار هذه الفوارق الطبقية كقضية حتمية، تعلقت بها المشيئة الالهية.

واما التفسير والتحليل فهو متابعة الجذور والعوامل الاجتماعية التي تؤدي إلى ظهور الانحراف والاستغلال في حياة الإنسان، تمهيداً لمكافحته والقضاء عليه، فاذا شخص الطب المرض وفسره وارجعه إلى اسبابه لا يكون هذا تبريراً للمرض وانما يكون تفسيراً.

والمغالطة التي يرتكبها المفكر الماركسي الفرنسي هي تطبيق التفسير على التبرير، واعتبارهما من مقولة واحدة.

فان العبارة المتقدمة تلمح إلى فكرة (القضاء والقدر) في

الدين. وهذه الفكرة قائمة على اساس من تحليل الظواهر والاحداث الاجتماعية وتفسيرها، وليس فيها تبرير للواقع الفاسد أو اسباغ صفة الشرعية عليه. . هذا عن الموقف الاول، وهو (التفسير) و(التحليل).

ويتمثل الموقف الاخر للدين من الانحراف الاجتماعي في محاولة تغيير هذا الواقع والتخطيط لبناء حياة اجتماعية سليمة من الانحراف والاستغلال والظلم. . وهذا هو الموقف الثاني (التفسير).

وكلا هذين الموقفين في تعاليم الدين يناقضان النظرية الماركسية عن الدين ونشوئه. وفيما يلي نلقي نظرة على كل من هذين الموقفين لنلمس مدى الاختلاف بين الواقع الديني، في مواقفه الصريحة والنظرية الماركسية في تفسير الدين وتحليله.

أ ـ الموقف التحليلي أو (القضاء والقدر)

التفسير

إن اكثر ما اوهم الماركسية بان الدين اداة لتبرير الواقع الاجتماعي الفاسد هو تفسير هذا الواقع في الدين بالقضاء والقدر.

فان (القضاء والقدر) في الدين هو التفسير الوحيد لكل ضروب الفساد والتحلل الاجتماعي، كما هو في نفس الوقت تفسير لاي حدث اخر في حياة الإنسان.

فلا يحدث في حياة الإنسان فقر أو دمار الا بقضاء من الله كما لا يحدث استقامة أو عدل في حياة الإنسان الا بقضاء وقدر من الله ايضا.

وقد اوهمت هذه النظرية الدينية المفكرين الماركسيين بان الدين يبرر الفساد والظلم الاجتماعي بنظرية القضاء والقدر.

وقد اشرنا من قبل ان الخلط الذي تقوم به الماركسية عن قصد أو عن غير قصد بين التبرير والتفسير في رأي الدين في

القضاء والقدر ادى إلى ان تعلن رأيها في الـدين بانـه (افيـون للشعوب).

الابعاد الثلاثة لمسألة القضاء والقدر

ولكي يتضح لنا رأي الـدين فـي القضـاء والقـدر لابـد ان نشرح نقاطاً ثلاثة تعتمدها النظرية، فـي الاطـار الـذي يرسـمه الإسلام لها:

١- تنشأ الاحداث الاجتماعية بمجموعها عن قضاء وقـدر إلهي، ولا يمكن ان تخرج عن علم الله، أو يحدث شيء مـن ذلـك مـن دون مشـيئة الله. فـإن الله سـبحانه مبـدأ كـل شـيء، وليس من شيء أو حدث يخرج عن علم الله ومشيئته.

يقول القرآن الكريم في ذلك:

(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)[1].

---

(١) الحديد: ٢٢ .

(يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)[١].

٢- تنفذ المشيئة الالهية في الكون ضمن سلسلة طويلة من الاسباب والعلل، ويتحكم قانون العلية في كل شيء في هذا الكون.

والاحداث الكونية والاجتماعية تنشأ عن اسبابها وعللها التي لا يمكن ان تتخلف عنها بحال من الاحوال. ولكل حدث علته التي تحتم وجوده وهو معنى (القضاء)، وتحدد شكله وتقدر حدوده وهو معنى (القدر).

ولا يمكن ان يتخلف قانون العلية هذا، ولا ان يحدث شيء دون سبب وعلة موجبة له.

فاذن يتم قضاء كل شيء وقدره في مرحلة وجود علته وسببه. وعلة كل شيء هي التي تقتضي وجوده، وتقدر شكله

---

(١) آل عمران: ١٥٤ .

ونوعه[١]، ولا ينافي هذا الاصل الاصل المتقدم من اسناد الاحداث إلى قضاء الله وقدره ومشيئته وعلمه بشكل عام.

فان الله تعالى هو مبدأ هذه السلسلة الطويلة من الاسباب والعلل واليه تعالى تنتهي هذه السلسلة الممتدة من الاسباب والعلل.

وكما يجوز اسناده إلى هذه العلل يجوز اسناده إلى الله تعالى كذلك بالحقيقة، فهو مبدأ هذه السلسلة من العلل وخالقها، والمهيمن عليها.

٣- ويملك الإنسان حرية الاختيار والتصرف فهو يستطيع

---

(١) إن اشعال عود ثقاب (يقضي) بوجود النار (بقدر) خاص من الحرارة والنور، بينما (يقضي) تفجير قنبلة بوجود النار ايضا، ولكن (بقدر) اكبر من الحرارة والنور.

فالعلة هي التي تقضي وجود المعلول، كما تقدر صورته النوعية وشكله وحجمه، وذلك انطلاقاً من مبدأ مسانخة العلة والمعلول، وذلك هو (القضاء) و(القدر). القضاء بمعنى (حتمية) وجود المعلول بوجود علته، والقدر بمعنى (تقدير وتحديد) نوعية المعلول وشكله وحجمه ومقداره طبقاً لعلته.

باختياره ان يضع نفسه أي موضع يشاء من هذه الاسباب والعلل، وله ملء الحرية في هذا الاختيار والتصرف وان كان لا خيار له بعد ذلك فيما يترتب على هذا السبيل أو ذاك من خير أو شر.

فان الإنسان يواجه في حياته مجموعة من العوامل والاسباب المختلفة، وكل عامل من هذه العوامل يقود الإنسان إلى نتيجة حتمية، حسب قانون العلية.

ويقف الإنسان على مفترق الطرق بين هذه العوامل والاسباب ليختار لحياته مسلكاً من هذه المسالك المختلفة بحرية ودون ان يرغمه على هذا الاختيار شيء.

وليس بين هذا الاختيار وحتمية النتائج التي يؤدي اليها اختياره من تناف. . فان حتمية النتائج لا تؤدي إلى سلب اختيار الإنسان في اختيار هذا السبيل أو ذاك من سبل الحياة، وفي اختيار هذه الجهة أو تلك من هذه الجهات الكثيرة التي تعرض للإنسان، وان كان الإنسان لا يملك بعد الاختيار ان يتجنب النتائج الحتمية التي يؤدي اليها اختياره.

فإن كل سبيل من هذه السبل علة لنتيجة محددة وحتمية

لا يمكن ان تتخلف عن سببها (بموجب قانون العلية).

وإنكار الاختيار في الإنسان، واعتباره اداة متحركة بفعل عوامل خارجة عن ارادته واختياره كما تتحرك وتعمل الآلة بتأثير من عوامل خارجة عنها. . شيء يرفضه الوجدان.

فان الكائنات الاخرى من غير الإنسان ليس امامها الا سبيل واحد تسلكه، دون ان يكون لها اختيار في هذا السلوك، وتنتهي إلى نتائجها الحتمية بقانون العلية.

بينما الإنسان يجد من نفسه بوضوح انه يواجه دائماً اكثر من خيار ومن طريق واحد، ويقف دائماً على مفترق طرق كثيرة في كل شؤون حياته وتحركاته، وانه يملك ملء الحرية والاختيار في اختيار هذا السبيل أو ذاك، وفي اختيار هذه الجهة أو تلك.

وبذلك فليس من تناف بين (حتمية النتائج) التي هي نتيجة طبيعية لقانون العلية، واساس لفكرة القضاء والقدر وبين حرية الإنسان (واختياره).

شواهد على القضاء والقدر

والقضاء والقدر بهذا المعنى امر شائع عند الناس ومفهوم لديهم قبل ان يكون من قضايا الدين والفلسفة.

فان القائد الذي يسعى لتطوير جيشه وتزويده باحدث ما يمكن من اسلحة، وتدريبه على افضل الاساليب في الحرب ويأخذ لجيشه بالمبادرة في الحرب، ويختار له الموضع العسكري المناسب بصورة افضل واقوى من العدو يكسب المعركة (بصورة حتمية).

بينما لو تقاعس القائد عن ذلك ولم يهيئ لجيشه فرصاً وامكانات افضل من فرص العدو وامكاناته، وكان العدو يتفوق عليه في متطلبات المعركة. . فسوف ينهزم في المعركة بصورة حتمية ايضا.

وليس بين هذه الحتمية وذلك الاختيار تعارض أو تناف مطلقاً، وكسب المعركة في الحالة الاولى والهزيمة في الحالة الثانية كلاهما من قضاء الله وقدره.

الا ان هذه الحتمية والقضاء الالهي لا يعني ان القائد لم يكن يملك الاختيار في الحالتين معاً في تغيير اسلوبه في

الاعداد للمعركة والتهيؤ لها.

والطالب الذي يأخذ للامتحان عدته ويهيئ نفسه من بداية السنة بصورة رتيبة ومنظمة، ويتوفر بشكل كامل على المادة الدراسية المطلوبة منه يجتاز الامتحانات بنجاح (حتماً)، بينما الطالب الذي يهمل واجباته المدرسية، ولا يعد نفسه لمتطلبات الدراسة، ويحضر قاعة الامتحان عن غير اعداد مسبق. . يفشل في الامتحان (حتماً).

وكل ذلك حتم وقضاء وفي كل ذلك كان يملك الطالب اختيار التصرف وحرية المصير.

وليس من تناف اطلاقاً بين تلك الحتمية وهذه الحرية وقد يكون اوضح مثال في ذلك ما ينقل عن الامام امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقد روي أنه كان جالساً تحت ظل جدار مائل فقام من ظله وجلس تحت ظل جدار آخر، خوفاً من ان يسقط عليه.

فقيل له: أتفر من قضاء الله يا أمير المؤمنين؟

قال: أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل[١].
فهو يلجأ من قضاء الله إلى قضاء آخر له تعالى.
وكل ذلك قضاء الله، إلاّ ان للإنسان الحرية في اختيار القضاء الذي يريد.

القضاء الالهي في الأُمم والجماعات:

ولا يختلف الامر عما تقدم حينما نستعرض مسالة القضاء والقدر على الصعيد الاجتماعي والامم والشعوب.

فمن قضاء الله ان الامة عندما تكون واعية وحينما تكون مدركة لمسؤولياتها وتتحرك في استرداد حقوقها تسترجع مكانتها وترد عن نفسها الظلم والاستغلال حتماً. وهذا قضاء الله.

وحينما تكون فاقدة للوعي غير مدركة لمسؤولياتها خامدة خاملة وراكنة إلى الظلم. . تتعرض لكثير من الظلم والاستغلال والاستبداد والنهب وهذا ايضا قضاء من الله.

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٦٩، ومختصر بصائر الدرجات ص ١٢٧.

وللامة ان تختار بملء حريتها اياً من القضائين.

وهذا هو الموقف التحليلي وموقف التفسير والدين بعد ذلك يأمر باختيار نوع من القضاء وينهى عن اختيار نوع آخر منه.

فهو يوجه المجتمع إلى الوعي والادراك والتحرك والصمود، وينهى عن الجبن والتخاذل والركون للظلم.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ)[1].

وهذا هو الموقف الحركي التغييري.

وهذه الحقيقة يذكرها القرآن في اوضح ما يكون من بيان.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[2].

فلا يغير الله ما بقوم من نعمة وعدل الا ان يبدأ الناس

---

(١) هود: ١١٢ – ١١٣.

(٢) الرعد: ١١ .

انفسهم بالظلم والافساد، ولا يغير ما بهم من فساد إلى صلاح الا ان يبدأ الناس انفسهم باصلاح واقعهم[١].

نتيجة البحث

ومما تقدم من حديث في استعراض قضية القضاء والقدر في الدين يتبين لنا امران:

أولاً: أن الايمان بنشوء الاحداث الاجتماعية مطلقاً عن قضاء وقدر من الله سبحانه وتعالى لا يعني اعطاء تبريرات دينية، كما يقول ماركس لهذه الاحداث.

فلا يبرر القضاء والقدر وجود فوارق وامتيازات طبقية في مجتمع ما، كما لا يبرر الايمان بالقضاء والقدر تخلفاً اقتصاديا أو عسكريا أو هزيمة في الحرية أو رسوباً في الامتحان أو فشلاً في الحياة.

وانما مهمة النظرية - كما تقدم - هي اعطاء تفسير كامل

---

(١) راجع للتوسع في هذا البحث الكتاب القيم (الإنسان والتقدير) للعلامة المطهري و(حقيقة الحرية) لمؤلف هذه الرسالة.

للاحداث الكونية والاجتماعية في تسلسلها الطبيعي وربطها بالقضاء والقدر في تسلسل هذه الاسباب وتعاقبها، فهو تفسير متكامل للاحداث الاجتماعية وليس تبريراً.

ثانياً: ان الدين يفترض ان الإنسان مزود بحرية الاختيار بين انحاء قضاء الله وقدره، وعليه تقع تبعية الاختيار ومسؤوليته، فان الحرية بقدر ما ترفع عن كاهل الإنسان الاجبار والاضطرار تضع على عاتقه مسؤولية الاختيار وتبعاته.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(١).

(فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ)(٢).

فلا يعني الايمان بالقضاء والقدر رفض المسؤولية وإلغاءها من حياة الإنسان، فان الايمان بالقضاء والقدر لما كان لا يسلب الإنسان حريته، فانه يضعه وجهاً لوجه ازاء

---

(١) الإنسان: ٣.

(٢) الكهف: ٢٩.

مسؤولية اعماله واتجاهاته وتصرفاته، وما يؤول إليه امره من شقاء وبؤس.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)[١].

(١) النحل: ١١٢.

الموقف التغييري

والأمر الآخر في تعاليم الدين هو الجانب التغييري للواقع الاجتماعي الفاسد.

فلا يقتصر دور الدين في حياة الإنسان على النصيحة بالعدل والصلاح وشجب الفساد والانحراف الاجتماعي والاقتصار على ذلك، ثم ترك ما لقيصر لقيصر، فان هذا الاتجاه ابعد ما يكون عن طبيعة الدين ومنهجه.

وانما الدور الرئيس الذي يقوم به الدين في حياة الإنسان هو التخطيط لتغيير الواقع الاجتماعي الفاسد، وبناء مجتمع إنساني متكامل في ضوء شريعة الله ورسالته.

فقد حاول الإسلام تغيير الواقع الجاهلي بما في هذا الواقع من انحراف عن شريعة الله وظلم واستغلال وسوء توزيع وفوارق طبقية هائلة. . وقد سلك الإسلام سبلاً مختلفة لتغيير هذا الواقع، وتحقيق الايمان بالله والعدالة الاجتماعية، وازالة الفوارق الطبقية، واستعادة كرامة الإنسان وقيمته الإنسانية وحقه في تقرير مصيره.

وأعاد الإسلام إلى الإنسان كرامته التي اهدرتها الجاهليـة، واعترف له بفضله ومكانته، اياً يكـون الإنسـان فقيـراً ام غنيـاً، ووضيعاً في حساب الجاهلية ام شريفاً.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِـي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيلاً)[١].

وألغى كل الفوارق والامتيـازات الطبقيـة التـي تحـب لهـا الجاهليـة الـف حسـاب، وأبقـى مقياسـاً واحـداً فقـط لقيـاس الإنسان، وهو الفضيلة والتقوى.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)[٢].

وأمر باقامة القسط والعدل في المجتمع.

---

(١) الاسراء: ٧٠.

(٢) الحجرات: ١١٣.

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)[(١)].

ووجه الناس إلى التعاون في الحياة الاجتماعية على البر، وامداد الضعفاء من الناس، وتقديم الخدمات الاجتماعية.

(وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى)[(٢)].

وأمر بالجنوح للسلم، واقامة العدل والقسط، وازالة البغي والظلم من المجتمع:

(وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)[(٣)].

ودعا إلى الخير والمعروف والبر في كل شيء وإنكار المنكر والظلم والاعتداء:

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)[(٤)].

ونهى عن البطر والرئاء والفراغ في الحياة:

---

(١) الاعراف: ٢٩ .

(٢) المائدة: ٢ .

(٣) الانفال: ٦١ .

(٤) آل عمران: ١٠٤ .

(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَـاء النَّاسِ)[١].

(وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَـا إِلَـى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّـنْ أَمْـوَالِ النَّـاسِ بِـالإِثْمِ وَأَنـتُمْ تَعْلَمُونَ)[٢].

ونهى عن تجميد الثروة، وتعطيلها عـن دورهـا فـي الحيـاة الاجتماعية، وحبسها عن الانفاق فـي سـبيل الله، كمـا يحـدده الدين.

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَـا فِـي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[٣].

وحذر عن الاثراء بالوسائل غير المشروعة كالربا.

---

(١) الانفال: ٤٧.

(٢) البقرة: ١٨٨.

(٣) التوبة: ٣٤.

(وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)[١].

كما حظر على المسلمين الاثراء بالغش والغبن والرشوة والسرقة وغير ذلك من الموارد غير المشروعة التي تؤدي إلى الاثراء غير المشروع.

وأوجب على المثرين في اموالهم حقوقاً للفقراء والضعفاء والمصالح تجبيها الدولة وتصرفها على الفقراء.

(وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)[٢].

وعمل على تفتيت الثروات والمواد المالية الكبيرة بالتقسيم والانفاق لكيلا يكون المال دولة بين الاغنياء من الناس تتداولها ايدي الاغنياء فيما بينهم.

---

(١) البقرة: ٢٧٥ .

(٢) الانفال: ٤١ .

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ)[١].

وشجع اولي الفضل في المال والثروة في انفاقها على الضعفاء والمساكين.

(وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ)[٢].

وأمر بمقابلة البغي والعدوان بالمقاومة والمجابهة والقتال:

(فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)[٣].

وأذن للذين تحملوا الظلم والاضطهاد والذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق. . ان يقاتلوا الذين ظلموهم واضطهدوهم.

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) النور: ٢٢.

(٣) الحجرات: ٩.

أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[١].

كما أمر بمقاتلة أئمة الكفر والظلم وحرم مهادنتهم والركون اليهم والاستسلام للظلم في كل اشكاله وصوره.

﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾[٢].

وأمر المسلمين بالدفاع عن حقوق المستضعفين والمضطهدين والقتال في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين، الذين يتحملون الظلم والاضطهاد:

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾[٣].

وغير ذلك مما يطول استعراضه والحديث عنه، وهو بعض

---

(١) الحج: ٣٩ – ٤٠.
(٢) التوبة: ١٢.
(٣) النساء: ٧٥.

التخطيط الـذي يرسـمه الـدين لتغييـر الواقـع الاجتمـاعي مـن جاهلية وانحراف واستغلال وظلم واستسلام للواقع الفاسـد. . إلـى مجتمـع مـؤمن قـوي يشـيع فيـه العـدل، ويأخـذ بالقسـط ويقاوم الظلم ويحكم بالحق ويقيم للحق دولة وصولة.

فهـل يجـوز ان يكـون الـدين - فـي مثـل هـذا الاطـار التشريعي - اداة للظـالمين فـي الاسـتغلال والاعتـداء، وافيونـاً يخدر مشاعر المضطهدين ويخمد لهب الثورة والسـخط فـي نفوسـهم ويـدعوهم إلـى الرضـوخ والاستسـلام ترقبـاً لحيـاة الآخرة ونعيمها.

من اليسير ان يغمض الإنسان عينه، ويتكلم مـلء فمـه بمـا يشاء ولكن من الظلم ان يستعرض الإنسـان الـدين فـي اطـاره الواقعي الذي أنزله الله تعالى، وفي اهدافه وغاياته، ثم يحكـم بـأن الـدين اطروحـة وضـعتها الفئـات المسـتغلة لضـمان استمرارها في استغلال الطبقات البائسة من المجتمع.

ان كل ما في الدين من تعاليم واحكام ونظريـات ينـاقض هذا الحكم ويفنده، ولـم يكـن اقطـاب المـذهب الماركسـي

بحاجة إلى استعراض تفصيلي لاحكام الدين وتعاليمه. . فقد كان يكفيهم القاء نظرة سريعة إلى هذا الدين أو ذاك في اطاره الحقيقي ليسحبوا كلامهم، وليقفوا من الدين موقفاً آخر يختلف كل الاختلاف عن الموقف المتقدم.

الناحية التاريخية

وباستعراض يسير لتاريخ ظهور الاديان في حياة الإنسان والفئات الموالية والمعادية للدين تتضح حقيقة دور الدين وابعاد مسؤوليته في حياة الإنسان.

فقد اقترن ظهور الاديان غالباً بالتفاف سريع وقوي من قبل الفئات المستضعفة في المجتمع، ومقاومة عنيفة وشديدة من قبل الفئات المترفة.

ولم يكن من قبيل المصادفة ان تبدأ الطبقة المترفة قبل غيرها في التحامل على الدين، واعلان مناوأته ومكافحته.

فقد كانت هذه الطبقة تجد في الدين ما يتعارض ومصالحها الطبقية، مما كان يدعوها إلى ان تقف موقف المناوئ من الدين.

فهي تستمد امكاناتها ووجودها الطبقي من حرمان الاكثرية من ضرورات الحياة الاولية، ولا يمكن ان تنسجم مع منهج يفتح فرص الحياة للجميع على نحو سواء، وينظر إلى الجميع نظرة واحدة، ويتبنّى منهجاً عادلاً في توزيع الثروة واتاحة الفرص.

ولذلك فقد كان المستضعفون والفقراء من امثال صهيب وبلال وأبي ذر وسلمان في طليعة المؤمنين برسالات الله تعالى غالباً وكان الاغنياء وذوو الترف والمكانة في المجتمع من قبيل ابي سفيان وأبي لهب وأبي جهل في طليعة المناوئين والمحاربين للدين غالباً[1].

حتى لقد كان ذلك يطفح على لسان المشركين من حين إلى حين.

يقول القرآن الكريم عن لسان قوم نوح:

(فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ)[2].

ومع هذا الواقع التاريخي للدين والطلائع المؤمنة به

---

(١) لابد ان نشير هنا إلى ان سبب الايمان بالدين والالتفاف حوله من كل الطبقات الفقيرة والغنية على نحو سواء هو الفطرة، كما يأتي ضمن هذا البحث، وأما العامل الاجتماعي - الاقتصادي فهو سبب فقط لمناوئة الدين ومحاربته، ضمن اسباب اخرى.

(٢) هود: ٢٧ .

والفئات المحاربة له كيف يمكن ان يستنتج الباحث إذا أراد ان لا يتجاوز حدود العدل والانصاف. . إن الدين كان على امتداد التاريخ اداة لحماية مصالح الفئات المترفة والغنية، وسبباً لالهاء الفقراء والبائسين عن واقعهم؟

ثم كيف يمكن ان يصل باحث منصف إلى هذه النتيجة والقرآن الكريم يحدثنا عن حالة بني اسرائيل قبل ان يبعث الله اليهم نبيه موسى لينقذهم من الشقاء والاضطهاد الذي كانوا يعانون منه تحت سيطرة فرعون وسلطانه. . فيقول تعالى:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)[1].

ويحدثنا عن حال المسلمين عندما كانوا في مكة قبل ان يمكن الله لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، يعانون من الاضطهاد والخوف الرعب، ثم منّ الله عليهم بالايواء والنصر والطيبات

---

(١) البقرة: ٤٩.

من الرزق.

(وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1].

ويكفي لكي نفهم حقيقة دور الدين المؤثر في اقامة العدل والقضاء على الظلم والاستغلال في الحياة الاجتماعية ان نلم إلمامة يسيرة بما كان يجري في حياة البشرية من ظلم فظيع واستغلال بشع وانحراف فكري هائل واختلاف طبقي مخيف. . قبل الإسلام، ثم نستعرض الدور المؤثر الكبير الذي قام به هذا الدين في ازالة هذه الاوضاع الشاذة والمفاهيم الخاطئة الجاهلية عن حياة المسلمين.

فلم يكن من اليسير على مجتمع عاش هذه الاوضاع الشاذة واعتاد عليها. . ان يتقبل قيادة شاب من عامة الناس كأسامة بن زيد لجيش كبير، يضم شيوخ المهاجرين والانصار.

---

(١) الانفال: ٢٦ .

ولم يكن من اليسير لمجتمع عاش هذا التمزق الطبقي والفوارق والاعتبارات الطبقية ان يتقبل بلال، وهو اسود من الاحباش ان يحتل هذا المحل الكبير من المجتمع الجديد، فيكون مؤذن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الخاص.

ولم يكن يسيراً على هذا المجتمع ان يتقبل سلمان الفارسي، وهو رجل من فارس، تنقل من رق إلى رق. . حاكماً على بلاد كبيرة.

لم يكن من اليسير ان يتم هذا التحول الاجتماعي الكبير في حياة الناس ومفاهيمهم وأفكارهم لولا الدور الكبير الذي قام به هذا الدين في ازالة الأوضاع الاجتماعية الشاذة والمفاهيم الجاهلية المنحرفة.

فهل من الجائز ان يكون الدين في مثل هذا الاطار اداة لخدمة مصالح الفئات المستثمرة والغنية في المجتمع، وسبباً لتخدير مشاعر الطبقات الفقيرة والمعدمة؟

وهل من الجائز ان يكون الدين اداة لتبرير الاستثمار والاستغلال والاضطهاد في حياة الإنسان؟

فقد كان الدين على امتداد التاريخ الإسلامي من ابرز

العوامل لظهور الحركات الثورية.

ومهما تكن نظرة الباحث تجاه الدين فلا يستطيع ابعاد العامل الديني عن الحركات الثورية والوعي الثوري خلال هذه الفترة الطويلة من تاريخ الإسلام.

فلم تكن ثورة ابي ذرﷺ الا سعياً لاعادة الإسلام إلى مجاري الحياة بعد ان استطاعت الفئات المنحرفة من بني امية ان يستعيدوا مواقعهم الجاهلية في الإسلام.

ورغم كل الانحراف الذي تعرض له المسلمون على امتداد تاريخهم الطويل لا نُعدم في كل فترة من هذا التاريخ اتجاهاً ثورياً قوياً في اعادة الإسلام إلى مجاري الحياة والقضاء على الظلم والاستغلال واستعادة حقوق الإنسان المسلم وكرامته.

وما يقال عن الإسلام يقال عن أي دين آخر، في الاطار الواقعي الصحيح للدين.

ويطول بنا الكلام ويخرج بنا عن الصدد لو اردنا استعراض هذه الحركات الثورية والمنطلقات البشرية الجبارة لتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الظلم والاستغلال

في ظل الدين وبوحي منه.

تراجع الماركسية:

ورغم ان الماركسية قد اعلنت موقفها وفهمها للدين بصراحة على لسان ماركس نفسه في شعاره الذي رفعه في وجه الدين (الدين أفيون الشعب). . فقد اضطرت الماركسية ان تتراجع عن موقفها من الدين بعد مرور قرن واحد من ظهور الماركسية وتوسعها.

فقد توجه الماركسيون المعاصرون إلى ان من العسير جداً توجيه الموقف الماركسي الذي وقفه اسلافهم من الدين توجيهاً مقبولاً يتقبله الناس.

ولذلك فقد اتجهت الماركسية المعاصرة إلى تبني فهم آخر للدين يمتاز ببعض المرونة التي كان يفقدها التفسير الذي ذكره اسلافهم للدين.

يقول روجيه غارودي – وهو فيلسوف ماركسي معاصر – في كتابه (ماركسية القرن العشرين):

(وهذا يعني ببساطة انه كان القول المشهور (الدين افيون الشعوب) قولاً لا تؤيده التجربة التاريخية التي لا سبيل إلى

جمودها، والتي ما تزال حتى اليوم واسعة الانتشار، فان النظرة الماركسية إلى الدين لا يمكن تلخيصها بهذا القول وحده.

فالقول بان الدين في كل زمان ومكان يصرف الإنسان عن العمل والكفاح يتناقض تناقضاً صارخاً مع الواقع التاريخي)[١].

ثم يقول في وصف بعض الاتجاهات الدينية:

(فأما التيار المسيحي المتأثر باليهودية، والذي كانت له السيطرة في كنيسة القدس، فكان وليداً من سلالة الحركات الدينية اليهودية التي ملأت القرن الاول قبل الميلاد. وكانت هذه الحركات في الغالب ذات طابع ثوري كحركات التحرر الوطني الشعبي الموجهة ضد السادة الاجانب: البابليين والآشوريين اول الامر ثم ورثة الاسكندر والرومانيون)[٢].

ويقول (موريس توريز) في تقرير كتبه بتاريخ **٢٦** تشرين

---

(١) ماركسية القرن العشرين: ١٤٦ – ١٤٧، تاليف روجيه غارودي، ترجمة نزيه الحكيم.

(٢) المصدر السابق: ١٤٨ .

الاول ١٩٣٧ عنوانـــه (الشـــيوعيون والكـــاثوليكيون، اليـــد الممدودة):

(إن مادية الشيوعيين الفلسفية بعيـدة عـن الايمـان الـديني لدى الكاثوليكيين، ولكن من المستحيل برغم هذا التباعد في المواقف النظرية ألا تلمس لدى هؤلاء وأولئك نفس الشـوق الخير إلى تلبية ما لدى البشر من تطلع أبدي إلى حياة افضل).

الانحراف الديني

ولابد ان نشير هنا إلى أننـا لا ننكـر وجـود الانحـراف فـي تاريخ الدين عـن خـط الـدين وأهدافـه، وحـدوث كثيـر مـن التشويه والتحريف في تاريخ الاديان، مما كان يجعـل الـدين عرضة للاستغلال، واداة لحماية فئة من الناس.

ومثـل هـذا الانحـراف عـن الـدين أمـر قـديم فـي تـاريخ الاديان، ولم يقتصر امره على التاريخ الإسلامي فحسب، فقد تعرضت اليهودية والمسيحية لانحرافات كثيرة.

وقد ذمّ القرآن الكريم هذه الفئة من علمـاء الـدين الـذين يحرفون كلمات الله ويصدون عن سبيله، ويكتمـون مـا أنـزل الله لارضاء نزوات الحكام وشهواتهم في اكثر من آية:

(وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)[1].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ)[2].

ولا شك ان الدين في هذا الاطار المزوّر والاتجاه المنحرف كان يُستغل كثيراً من قبل الفئات الحاكمة والمستغلة لدعم وجودهم وتثبيت كيانهم.

إلاّ أن ذلك لا يعني بوجه من الوجوه ان الدين اداة للاستغلال والاستثمار.

فلا علاقة للدين بما كان يصنعه هؤلاء باسم الدين من اعمال وتصرفات ولا يجوز نقد الدين بما يتبرأ منه، ويكافحه من اتجاهات وتصرفات.

---

(١) آل عمران: ١٨٧ .

(٢) التوبة: ٣٤ .

موقف الدين من الاستعمار الحديث:

وإذا استثنينا هذه المقاطع من الانحراف في تاريخ الأديان فإننا نجد أن التاريخ يحفل بكثير من الحركات الجهادية لمقاومة الظالمين والاستغلال والاستثمار والاستبداد والاستعمار والظلمة، والتاريخ الإسلامي يحفل بكثير من الحركات الدينية الجهادية التي تنطلق من قواعد إسلامية ومن شعور ديني للقضاء على الظلم والاستغلال في الوطن الإسلامي باطرافه الواسعة.

وليس من العسير على الإنسان ان يلمس بوضوح هذا الشعور الديني الاصيل في مكافحة الاستعمار في بلاد المسلمين في الفترة المعاصرة من تاريخنا في القارة الافريقية، وقارة آسيا واهمية العامل الديني وصدارته في هذا المجال.

يقول العالم الفرنسي (جورج بالانديه) في كتابه عن القارة السوداء:

(هناك اسباب كثيرة للارتباط الوثيق القائم بين الدين والحركات التحررية في أفريقية السوداء).

ويذكر (بالانديه) ثلاثة من هذه الاسباب:

١- قبول الإسلام في أفريقية كأطروحة سماوية لانقاذ الإنسان من الازمات والمشاكل الاجتماعية.

٢- اقتران الإسلام والايمان في هذه القارة برد فعل روحي وأيديولوجي قبال أوروبا، المادية الغارقة في الحياة المادية.

٣- اهتمام الإسلام البالغ بالثورة ضد الظلم ونشوء الحركات الثورية المقاومة للظلم في الإسلام[1].

ويذكر الدكتور إحسان حقي: (إن الجزائر المعاصرة اذا كانت قد تمكنت اخيراً من التغلب على الاستعمار الفرنسي، رغم كل الاساليب والضغوط التي كانت تمارسها عليها فرنسا، واذا كانت قد تمكنت من المحافظة على وجودها وكيانها فليس ذلك الا لسبب واحد، وهو الدين الإسلامي الذي صنع الإنسان الجزائري بهذه الصلابة والقوة)[2].

وذكر الكاتبان المعروفان (كوليت) و(فرانسيس جانسون)

---

(١) كتاب (مذهبان) ٦٢ – ٦٣ ، للسيد هادي خسروشاهي.

(٢) راجع الجزائر العربية: ١٥ .

بهـذا الصـدد أنـه: (لا شـك أن تـأثير الإسـلام فـي تحريـر الجزائري كان كبيراً، فقد أدرك الجزائريون من اول يوم مـن الاسـتعمار الفرنسـي أن فرنسـا تريـد القضـاء علـى الإسـلام. . فعرف الجزائريون أن سـبيلهم الوحيـد للـتخلص مـن سـلطان الاستعمار الفرنسي والتحرر منه هو الإسلام)[١].

يقول الحاج أمين الحسيني فيما يسـجل مـن ذكرياتـه فـي جريدة اخبار اليوم:

التقيت بالدكتور بروفركفيل مدير ادارة أمـور الشـرق فـي وزارة الخارجية الالمانية وتحدثنا في استقلال شـمال افريقيـا. فقال لي بصراحة:

مـن عقيـدة أوروبـا أن الإسـلام أخطـر عليهـا بكثيـر مـن الشيوعية، فمن الممكن مكافحة الشـيوعية بتحسـين الاوضـاع المعيشـية والاقتصـادية فـي بلـد مـا. . إلا ان الإسـلام يمتـاز بمعنوية عالية تشكل خطـراً علـى اوروبـا المعاصـرة التـي قـد تآكلت مقوماتها الروحية واخلاقهـا فـي الظـروف الحضـارية

---

(١) نقلاً عن كتاب (مذهبان) للسيد هادي خسروشاهي: ٦٣ – ٦٤.

المعاصرة.

ولذلك فإن اوروبا تخشى هذا (الخطر) على حياتها دائماً، وتخاف الدول الاوروبية ان تزداد قوة دول شمال افريقيا، وتقوى مكانتها بعد ان تحقق استقلالها وتشكل خطراً على مصالح اوروبا ووجودها[١].

وهكذا نلمس بوضوح عمق الاثر الذي يتركه الدين في حياة الشعوب ومصيرها.

ونلمس العلاقة الوثيقة بين الدين وحركات التحرر والتخلص من سلطان الاستعمار والاستغلال في الشرق الإسلامي.. رغم كلما نعترف به من الانحراف الذي طرأ على مسيرة الدين في تاريخها الطويل.

---

(١) نقلاً عن كتاب (مذهبان) للسيد هادي خسروشاهي: ٦٣ - ٦٤.

الفهرس